الجزء الأول

الرب المجهول

(٣٠٠٠٠ ق م - ١٥٠٠ م)

1

الإنسان... ذلك المخلوق الدينى

Homo religiosus

حينما يُطفئ المرشد السياحى مصباحه الكشاف فى كهوف لاسكو بمحافظة دوردونية بفرنسا يتملك الحضور مشاعر غامرة. يقول أحد زوار الكهف «فجأة تشعر وأن حواسك غير موجودة. تُمحى آلاف السنين.. تجد أنك لم تخبر أبداً فى حياتك ظلمة أشد ظلاما. لا أدرى.. كانت إرباكا كليًا. لا تعرف ما إن كنت تنظر شمالا، جنوبا، شرقا، أم غرباً.. تختفى كل الاتجاهات وتجد نفسك فى ظلام لم ير الشمس أبدا. وحينما يخبو الوعى المعتاد بضوء النهار يشعر المرء بانفصال لا زمانى عن جميع اهتمامات ومتطلبات العالم العلوى الذى خلّفه وراءه». قبل الوصول إلى أول تلك الكهوف التى زينها أسلافنا فى العصر الحجرى القديم منذ سبعة عشر ألف عام، يكون الزائرون قد تعثروا لمسافة حوالى ٨٠ قدما أسفل نفق منحدر يقع على عمق ٦٠ قدما تحت مستوى سطح الأرض ويخترق أحشاء الأرض لمسافة أكثر عمقا. ثم، فجأة ، يوجّه المرشد أشعة كشافه إلى السقف فتبدو الحيوانات المرسومة وأنها تخرج من أعماق الصخور. يسير حيوان غريب، بطنه حُبلى وقرونه طويلة مدببة خلف صف من الماشية البريَّة: خيول، وغزلان، وثيران، وتبدو كلها متحركة وساكنة فى آن.

ككل، هناك حوالى ستمائة جدارية وألف وخمسمائة نقش فى متاهة لاسكو. ثمة ثور أسود مخصى يخور، وبقرة تقفزه، موكب من الخيول تتحرك فى الاتجاه المعاكس. وفى مدخل ممر طويل يُعرف بالسُّرة، رُسمت مجموعة الغزلان الرشيقة أعلى حافة صخرية بحيث تبدو وأنها تسبح. نرى تلك الصور بوضوح يفوق كثيرا ما كان متوفرا لفنانى العصر الحجرى القديم الذين كان عليهم أن يعملوا على ضوء مصابيح صغيرة وامضة وضعت متقلقلة على سقالة تَركتْ ثقوبا بسطح الجدار. كثيرا ما كان الفنانون يرسمون صورا جديدة على صور قديمة، هذا على الرغم من وجود مساحات كافية متاحة. لكن يبدو وأن الموقع كان ذا أهمية قصوى، وأنه لأسباب لا نستطيع سبر أغوارها، فقد كانوا يرون أن بعض الأماكن أكثر ملاءمة من غيرها. كان موضوع الصور يخضع لقواعد لا أمل لنا فى فهمها. أيضاً انتقى الفنانون قليلا فقط

من السلالات التى كانوا يعرفونها، ولم يكن ثمة صور لحيوانات الرنة التى كانوا يأكلونها. كان يتم المزاوجة فى الصور، بين الحيوانات على نحو متسق – الثيران والأحصنة، الثيران والماموثات – تمازجات لا نجد لها نظيرا فى الحياة الواقعية. ليست لاسكو فريدة، فثمة حوالى ثلاثمائة كهف مُزيَّن فى تلك المنطقة فى جنوب فرنسا وشمال إسبانيا. بعض الأعمال الفنية أكثر بدائية من غيرها، لكن الصور والتصميمات متماثلة بشكل أساسى فى جميع تلك الكهوف. الموقع الأكثر قدماً يوجد فى جروس شوڤيه ويرجع تاريخه إلى حوالى ٣٠٠٠٠ عام قبل الميلاد، وهو وقت يبدو وأن الجنس البشرى، فى تلك المنطقة كان قد مر بتغير تطورى مفاجئ. كانت ثمة زيادة دراماتيكية فى عدد السكان ربما تكون قد أدت إلى توتر اجتماعى. يعتقد بعض المؤرخين أن «فَنْ الكهوف هو مُدوّنة للطقوس المنشأة اجتماعيا.. للتحكم فى الصراعات..

مُشفرة تصويريا لحفظها ونقلها عبر الأجيال» لكن الرسوم تعبر أيضا عن ذائقة جمالية زخمة للعالم الطبيعي. لدينا هنا أحد أقدم الأدلة على نظام أيديولوجي بقى ثابتا فى موقعه قرابة ٢٠ ألف عام، وبعدها اعترى الكهوف الإهمال فى حوالى عام ٩٠٠٠ ق. م.

والآن، ثمة توافق عام على أن تلك المتاهات كانت أماكن مقدسة لأداء نوع من الطقوس. يرى بعض المؤرخين أن هدفها كان برجماتيا خالصا، لكن الحفاظ عليها فقط كان لابد أن يقتضى قدراً هائلاً من العمالة غير المنتجة. كانت بعض تلك المواقع على درجة من العمق بحيث إن الوصول إلى مركزها الداخلى كان يستغرق ساعات عديدة. كانت زيارة الكهوف خطرة، مرهقة، فظة، مبددة للوقت. ثمة إجماع عام على أن الكهوف كانت أحْراماً، تعكس مواضيع صورها وأيقوناتها، مثلما هو الحال فى أى معبد، رؤية مختلفة جذريا عن رؤية العالم الخارجى. لا نبنى معابد كتلك فى الغرب الحديث. نظرتنا إلى العالم يهيمن عليها الطابع العقلانى، ونفكر بسهولة أكثر من خلال المفاهيم لا من خلال الصور. نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نفك شفرة رموز الكاثدرائيات عصر الأوسطية مثل تلك الموجودة بشارتر/ فرنسا، من ثم فإن تلك الأضرحة التى تنتمى إلى العصر الحجرى تمثل تحديًا يكاد لا يمكن التغلب عليه.

لكن ثمة بعض المفاتيح التى تساعدنا على الفهم. تُصوِّر إحدى الرسومات اللافتة، يرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٢٠٠٠ ق م، بكهف فى لاسكو يُعرف بالسرداب Crypt لأنه يقع على عمق أكبر من الكهوف الأخرى، تُصوّر ثورا ضخما «من نوع البيزون» أصيب بجراح من رُمح سُدِّد إلى أجزائه الخلفية. أمام الحيوان الجريح يرقد رجلٌ رُسِم بأسلوب أكثر بدائية من الحيوان ذراعاه ممدودتان، عضوه منتصب، ويرتدى ما يبدو وأنه قناع طائر. أيضا، تعلو

رأس طائر عصا الرجل الملقاة على الأرض. يبدو هذا وأنه رسم توضيحى لإحدى الحكاوى الشهيرة التى ربما شكلت الأسطورة المؤسسة لهذا الملاذ المقدس. حُفِر نفس المشهد على قرن حيوان رنة بمدينة ڤيلاد القريبة وعلى كتلة حجرية بملاذ صخرى فى روك دوسور بالقرب من ليموج، وهذا النقش أقدم من رسم لاسكو بخمسة آلاف عام. عُثر أيضا على خمس وخمسين صورة مماثلة فى كهوف أخرى، نقوش على صخور تنتمى إلى العصر الحجرى بإفريقيا، وتوضح رجالا فى حالات غشية يواجهون حيوانات وأذرعهم مرفوعة. ثمة احتمال أن يكون هؤلاء الرجال شامانات.

نعلم أن الشامانية تطورت فى إفريقيا وأوربا أثناء العصر الحجرى القديم، ثم انتشرت إلى سيبيريا ومن هناك إلى أمريكا وأستراليا، حيث مازال الشامان هو القائد الدينى بين الشعوب الأصلية التى تعمل بالصيد. وعلى الرغم من أن تلك المجتمعات تأثرت بالضرورة بالحضارات المجاورة، لكن توقف نمو كثير من البنى الأصلية لتلك المجتمعات لدى مرحلة تماثل تلك التى كانت موجودة بالعصر الحجرى، وظلت كما هى حتى سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. واليوم، ثمة استمرارية لافتة فى رحلة الشامان الذى تعتريه حالة غشية من سيبريا مخترقا الأمريكتين حتى يصل إلى تييرًا ديل فيوجو Tierra del Fuego: يُغمى عليه أثناء جلسة علنية لاستحضار الأرواح ويعتقد أنه يطير خلال طبقات الهواء ليستشير الآلهة عن مواقع صيد الحيوانات. لا يشعر الصيادون فى تلك المجتمعات التقليدية بتمايزات بين الأنواع، أو بوجود مصنفات دائمة: بالإمكان أن يصبح البشر حيوانات والحيوانات بشرا. تضفى رؤيا الشامان معنى على صيد الحيوانات التى تعتمد عليها تلك المجتمعات وعلى قتلها.

يشعر الصيادون بعظيم الإرباك لدى قتل الحيوانات التى يعتبرونها

أصدقاءً ورعاةً لهم. ومن أجل تخفيف التوتر، يُحيطون الصيد بالمحرمات والمحظورات. يعتقدون أن الحيوانات، منذ زمن طويل، صنعت عهدا مع البشر، والآن، يرسل إله يعرف بـ «سيد الحيوانات» أو «الحيوان السيد» قطعانا من العالم التحتى كى تُقْتل فى سهول الصيد، وذلك لأن الصيادين وَعَدوا بأداء الطقوس التى تمنحها حياة بعد الموت. غالبا، لا يقرب الصيادون النساء قبل رحلة الصيد، ويصطادون فى حالة من الطهارة الطقوسية ويشعرون بتماهٍ عميق مع ضحاياهم. فى صحراء كالاهارى، حيث الغابات مقدسة، يكون على الصيادين الاعتماد على أسلحة خفيفة تكشط الجلد فقط، من ثم، فهم يدهنون سهامهم بسم قاتل يسرى مفعوله ببطء شديد. على رجل القبيلة أن يبقى مع ضحيته، ويبكى لبكائها، ويشارك رمزيا فى آلام احتضارها. تتماهى بعض القبائل الأخرى مع ضحاياها بارتدائهم أزياء حيوانات. وبعد نزع اللحم عن العظام، يعمد البعض لإعادة تركيب هيكل الحيوان المقتول وتغطيته بجلده، ويقوم آخرون بدفن البقايا غير القابلة للأكل وبذلك يعيدون الحيوان، رمزيا، إلى العالم التحتى الذى قدم منه.

من المحتمل أن صيادى العصر الحجرى كان لهم نفس النظرة إلى العالم، يبدو أن بعض الأساطير والطقوس التى ابتدعها هؤلاء قد ظلت مستمرة فى موروثات الثقافات المتعلمة التى تلت. مثلا، تقديم الحيوانات أضحيات طقس رئيسى فى جميع أنظمة الديانات القديمة تقريبا، وقد حافظت تلك التقاليد على طقوس الصيد لما قبل التاريخ، واستمرت فى تكريم الحيوانات التى تمنح حياتها فى سبيل البشرية. إحدى وظائف هذا الطقس هو إثارة التوتر بأسلوب يُجبر المجموعة على مواجهته والتحكم فيه. يبدو أن الحياة الدينية، ومنذ بدايات البشرية الأولى، كانت متجذرة فى الحقيقة المأساوية بأن استمرار الحياة يعتمد على تدمير مخلوقات أخرى.

إذن، فربما كانت كهوف العصر الحجرى مشهدا لطقوس مماثلة. تضم بعد الرسومات رجالاً يرقصون وهم يتزيون كحيوانات. يقول رجال الغابات إن رسوماتهم على الصخور تصور «العالم (الذى يقع) خلف هذا الذى نراه بأعيننا» والذى يزوره الشامانات خلال غشيتهم الروحية. يلوثون جدران الكهوف بدماء الحيوانات التى يقتلونها ويدهونها وروثها، كى يعيدوها، رمزياً، إلى الأرض. كانت دماء الحيوانات ودهونها مكونات لرسومات العصر الحجرى، ومن المحتمل أن فعل الرسم ذاته كان طقس استعادة. كما أنه من المحتمل أيضا أن الرسومات تصور النماذج الأولى للحيوانات الخالدة التى تتخذ أشكالا جسدية فى عالمنا الفوقى. أسست جميع الديانات القديمة على ما يُسمّى فلسفة الحيوان الخالدة أو المتكررة perennial لأن تلك الفلسفة كانت موجودة بشكل ما أو آخر فى ثقافات كثيرة قبل حديثة. ترى تلك الفلسفة كل شخص أو شيء أو تجربة نسخة طبق الأصل من حقيقة فى عالم مقدس أكثر فاعلية ودواما من عالمنا. حينما يصطاد أحد سكان أستراليا الأصليين حيوانا، يشعر بالتماهى التام مع «الصياد الأول» من ثم يجد نفسه وسط حقيقة أكثر ثراء، وزخما تُشعره بالحيوية والاكتمال. من المحتمل أن صيادى لاسكو كانوا يعيدون تمثيل النموذج الأصلى للصيد فى تلك الكهوف وسط هذه الرسومات لأرض الصيد الخالدة قبل أن يغادروا القبيلة ويشرعوا فى مسعاهم الخطر للحصول على طعام.

ليس باستطاعتنا، بالطبع، سوى التكهن. يعتقد بعض الباحثين أن هذه الكهوف كانت تُستخدم لإجراء مراسم البلوغ، طقوس مرور الصبية من الطفولة إلى النضوج. كان نمط التلقين هذا حاسماً فى الديانات القديمة ومازال يمارس فى المجتمعات التقليدية حتى يومنا هذا. حينما يصل الصبية مرحلة البلوغ يُفْصلون عن أمهاتهم ويمرون بمحنٍ مخيفة تحولهم إلى رجال. لا تملك القبيلة رفاهية السماح للمراهق بـ «العثور على ذاته» بالأسلوب

الغربى، عليه التخلى عن تبعية الطفولة وتحمل أعباء النضوج بين عشية وضحايا. ومن أجل بلوغ هذا الهدف، يُحتجز هؤلاء الصبية فى مقابر، يدفنون فى الأرض، يقال لهم إن الوحوش على وشك أن تلتهمهم، يجلدون، يُختّنون، يوشمون. وإذا سارت طقوس التكريس على النحو الصحيح، سيُجبَر المراهق على التعرف على إمكانات باطنية لم يكن يعرف أنه يمتلكها. يخبرنا علماء النفس أن هول تلك التجربة تتسبب فى اختلال نكوصى للشخصية، الذى، وإذا تم التعاطى معه بمهارة، سيؤدى إلى إعادة تنظيم بنّاء لقوى الشاب. لقد واجه الموت، وتعرف على الجانب الآخر، والآن، فهو مستعد نفسياً للمخاطرة بحياته من أجل أنُاسه.

لكن ليس هدف هذا الطقس فى المجتمعات البدائية هو تحويله المراهق إلى آلة قتل فاعلة، بل لتدريبه على القتل بالأسلوب المقدس. يسمع أولا عن «الحيوان السيد» عن العهد، عن شهامة الحيوانات وكرمها، وعن الطقوس التى سترد إليها حياتها حينما تُجتاز تلك الطقوس المؤذية. وفى تلك الملابسات غير العادية، يدفع به، وهو فى عزلة عن كل ما هو مألوف، إلى حالة جديدة من الوعى تمكنه من تقدير الرابطة العميقة التى تصل الصياد والضحية فى صراعهما المشترك من أجل البقاء. ليست هذه معرفة تكتسب من خلال التمكن والتفكير المنطقى المحض، لكنها تماثل الإدراك الذى نصل إليه من خلال الفن. يملك الشعر، المسرحيات، أو اللوحات العظيمة القدرة على تغيير مدركاتنا بأسلوب قد لا يكون باستطاعتنا تفسيره منطقيا، على الرغم من أنه يبدو حقيقيا بشكل لا يقبل الجدل. فى تلك اللوحات نجد أن أشياء تبدو متمايزة للعين المنطقية، نجدها متصلة على نحو عميق، أو تكتسب أشياء أخرى عادية تماما – كرسى، زهرة عباد الشمس، أو زوج من البووتس – أهمية روحية غامضة. يؤثر الفن فى عواطفنا ويخاطبها. إذا كان هذا الأثر أكثر من مجرد

تجلٍّ سطحى، فلابد لتلك البصيرة الجديدة أن تترسخ بدرجة أعمق من المشاعر العادية التى هى بطبيعتها وقتية زائلة.

وإذا كان المؤرخون مصيبين فيما يقولونه عن وظيفة كهوف لاسكو، يمكن القول إذن بثقة إن الدين والفن كانا مرتبطين بقوة منذ البدايات الأولى. والدين، مثل الفن، هو محاولة لتشكيل معنى فى مواجهة آلام الحياة ومظالمها القاسية. وبصفتهم مخلوقات تسعى إلى المعنى، فمن السهل جداً للرجال والنساء أن يسقطوا فى براثن اليأس. لذا، التجأوا إلى الديانات والأعمال الفنية لتساعدهم على العثور على قيمة لحياتهم، هذا على الرغم من جميع الشواهد المحبطة الدالة على نقيض ذلك. توضح أيضاً خبرة التكريس التى يمر بها الصبية أن كثيرا من معانى الأسطورة، مثل أسطورة «الحيوان السيد» تعزى إلى السياق الطقوسى الذى تُنقل من خلاله. قد لا تكون صحيحة إمبريقياً، وقد تتحدى قوانين المنطق، لكن الأسطورة الجيدة ستخبرنا بشىء ذى قيمة عن المأزق البشرى. ومثل العمل الفنى، فلن نفهم للأسطورة معنى إلا إذا فتحنا أعماق ذواتنا لتلقيها كى نتيح لها أن تغيرنا، لكن، إذا قاربناها متحفظين، ستظل مستغلقة علينا، غير قابلة للفهم، بل سخيفة مضحكة.

يتطلب الدين عملا شاقاً. ليست استبصاراته بدهية، بل يجب رعايتها وتنميتها، تماما كتنمية الذائقة الفنية، الموسيقية والشعرية. يصبح ذلك الجهد الزخم المتطلّب جليًّا بخاصة فى متاهة تروا فرير (الإخوة الثلاثة) بأرييج فى جبال البرانس. وصف الدكتور هربرت كون، الذى زار الموقع عام ١٩٢٦ بعد اكتشافه باثنى عشر عاما، التجربة المخيفة للزحف خلال النفق – الذى لا يزيد ارتفاعه فى بعض المناطق على قدم واحد – والذى يؤدى إلى قلب ذلك الحرم الرائع الذى ينتمى للعصر الحجرى. تذكّر قائلاً «شعرتُ أننى أزحف فى نعش. كان قلبى يدق بعنف والتنفس عسير. من المروع وجود السقف على تلك

المسافة شديدة القرب من الرأس». كان بإمكانه سماع أنين أعضاء الفريق الآخرين فيما هم يناضلون وسط الظلام، وحينما وصلوا فى النهاية إلى الردهة تحت الأرضية الواسعة شعروا وأن هذا كان «خلاصا». وجدوا أنفسهم يحدقون فى جدار مغطى بنقوشات مذهلة: ماموثات، بيزونات، خيول برية، ذئاب شرهة شمال أمريكية، وثيران المسك، أسهم تتطاير فى جميع الأرجاء، الدماء تتدفق من أفواه الدببة، وشكل بشرى يرتدى جلد حيوان يعزف الفلوت. كان يهيمن على المشهد شكل ضخم مرسوم، نصفه رجل ونصفه حيوان، كان يركز عينيه الضخمتين الثاقبتين على الزوار. أكان هذا هو «الحيوان السيد؟» أم أن هذا المخلوق الهجين كان يرمز إلى الوحدة التحتية للحيوان والبشر، للطبيعى والمقدس؟

لن يُتوقع من صبى أن «يعتقد» فى «الحيوان السيد» قبل أن يدخل الكهوف. لكنه لدى وصوله إلى ذروة محنته، كان لابد لهذه الصورة أن تترك انطباعات عميقة. فربما كان قد ظل لساعات يشق طريقه بصعوبة خلال ممرات متلفلفة بمصاحبة «أغانى، صيحات، ضوضاء، أو أشياء غريبة يُلقى بها من حيث لا يدرى أحد»، فلابد وأنه كان من السهل ترتيب أمر المؤثرات الخاصة فى مكان كهذا، لم يكن ثمة مفهوم لما هو فوق طبيعى فى فكر القدامى، لا هوة عميقة تفصل بين البشرى والمقدس. كان الكاهن يرتدى الزى المقدس، أى جلد حيوان ليتقمص شخصية «الحيوان السيد»، ويصبح تجسيدا مؤقتا للقوة الإلهية. لم تكن هذه الطقوس تعبيراً عن «عقيدة» يجب تقبلها بإيمان أعمى. يقول الباحث الفرنسى والتر بركرت موضحاً أنه من غير المجدى البحث عن فكرة أو عقيدة خلف الطقس. لم يكن الطقس، فى العالم قبل الحديث، نتاج أفكار دينية، بل على النقيض، فقد كانت الأفكار نتاج الطقوس. الإنسان الدينى برجماتى بهذا المعنى فقط. إذا لم يعدْ الطقس يستدعى اقتناعا عميقا بالقيمة النهائية للحياة، كان يتم نبذه. مضى صيادو

المنطقة، لعشرين ألف عام، يخترقون طريقهم خلال ممرات التروا فرير الخطرة كى يأتوا بأسطورتهم – أيًا ما كانته – إلى الحياة. ولابد وأنهم قد وجدوا مجهودهم مُجزيا وإلا لتخلوا عنه ودونما تردد.

لم يكن الدين شيئاً يُلحق بالحال البشرية، إضافة اختيارية يفرضها على الناس كهنة مجردون من الأخلاق. بل ربما أمكننا القول إن الرغبة فى تنمية حس بالمتسامى هى السمة البشرية التعريفية. فى حوالى عام ٩٠٠٠ ق. م، حينما طور البشر الزراعة، ولم يعودوا يعتمدون على الحيوانات فقط، فقدت طقوس الصيد القديمة بعضا من جاذبيتها وتوقف الناس عن زيارة الكهوف. لكنهم لم ينبذوا الدين بإطلاقه بل طوروا مجموعة من الأساطير والشعائر تقوم على خصوبة التربة التى ملأت رجال العصر النيوليثى (الحجرى الحديث) ونساءه بالرهبة الدينية. أصبح حرث الحقول طقسا حل محل الصيد، واحتلت الأرض «التى تمنح الغذاء مكانة الحيوان السيد». قبل العصر الحديث كان غالبية الرجال والنساء نزاعين بطبيعتهم للدين وكانوا على استعداد لبذل الجهد فى سبيل ذلك. أما اليوم، لم يعد الكثير منا على استعداد لبذل هذا الجهد، من ثم، تبدو الأساطير القديمة اعتباطية، قصيّة، وغير مصدقة.

ومثل الفن، تتطلب حقائق الدين الرعاية المنظمة لأسلوب وعى مختلف. دائماً ما بدأت تجربة الكهوف بفقدان الحس بالتوجه وبالزمان والمكان نتيجة الظلمة التامة الدامسة التى كانت تمحو عادات العقل المعيارية. يقتضى تشكيل البشر منهم، أن يبحثوا بين حين وآخر عن حالة من الانتشاء، من «الخطو خارج» المعتاد. واليوم، يلجأ الناس الذين لم يعودوا يجدون هذه الحالة فى التجربة الدينية إلى منافذ أخرى: الموسيقى، الرقص، الفن، الجنس، المخدرات، أو الرياضة. نسعى بإصرار إلى هذه التجارب التى تلمس أعماقنا، وتحملنا بعيدا، مؤقتا، خارج ذواتنا. فى مثل تلك الأوقات، نشعر أننا نسكن حالتنا البشرية باكتمال يفوق المعتاد ونخبر زخماً لكينونتنا.

قد تبدو لاسكو قصية بدرجة الاستحالة عن الممارسات الدينية الحديثة. لكننا لا نستطيع فهم طبيعة المسعى الديني، أو مأزقنا الديني الحالي إلا إذا قدَّرنا الروحانية التي ظهرت في وقت مبكر من تاريخ الإنسان الديني Homo religious، واستمرت تضفي الحيوية على العقائد الإيمانية «التوحيدية» حتى مطلع العصر الحديث، حينما ظهر تدين مختلف تماما في الغرب أثناء القرن السابع عشر. ومن أجل هذا علينا أن نخص عددا من المبادئ الجوهرية التي ستكون ذات أهمية قصوى لقصتنا.

يتعلق المبدأ الأول بطبيعة الحقيقة الجوهرية – سمِّيت فيما بعد الله، نيرڤانا، براهما أو داو. يوجد في نتوء صخري بلوسل بالقرب من لاسكو، نقش صخري بارز عمره سبعة عشر ألف عام، ابتُدع في نفس وقت أقدم رسومات الكهوف القريبة منه. يصور امرأة تحمل قرن بيزون محدَّب فوق رأسها بحيث يوحي مباشرة بظهور القمر في مرحلة الهلال، ويدها اليمنى موضوعة على بطنها الحبلى. في ذلك الوقت، كان الناس قد بدأوا يلاحظون مراحل القمر لأسباب عملية، لكن لم يكد لدينهم أن تكون له علاقة بالملاحظة العلْمية الأولية للكون الفيزيقي. بدلا من ذلك، كان الواقع المادي يرمز إلى بعد غير مرئي للوجود. توحي «ڤينوس» لوسل الصغيرة هذه بوجود رابطة بين القمر، والدورة الأنثوية، والإنجاب البشري. كان القمر، في أجزاء كثيرة من العالم، يرتبط بعدد من الظواهر لا تربطها، ظاهرها أية علاقة: النساء، الماء، الحياة النباتية، الأفاعي، والخصوبة. العامل المشترك بين كل تلك الظواهر هي قدرة الحياة على الانبعاث حيث بإمكانها تجديد نفسها باستمرار. بإمكان كل الأشياء أن تزوى وتصبح لا شيء، لكن، في كل عام، بعد موات الشتاء، تنبثق من الأشجار أوراق جديدة، يذبل القمر ويختفي، ثم يكبر وهّاجا مرة أخرى، أما الأفعى، الرمز الشمولي للبدء، فتنسلخ من جلدها الذاوي المتغضن القديم لتظهر مرة أخرى وامضة مفعمة بالحياة. جسدت الأنثى أيضاً تلك القدرة

التى لا تبلى. كان قدامى الصيادين يُجلّون إلهة تعرف باسم «الأم العظمى». تظهر فى نقوشات حجرية بارزة بكاتالهويوك فى تركيا، وهى تضع مولودها، ويحيط بها على الجانبين جماجم الخنازير البرية، وقرون الثيران - بقايا صيد ناجح. وحيث كان الصيادون والحيوانات يموتون فى صراعهم الضارى من أجل البقاء، كانت الأنثى دائماً تأتى بالحياة الجديدة.

ربما كانت تلك المجتمعات القديمة تحاول التعبير عن حسها بما أطلق عليه الفيلسوف الألمانى مارتن هايدجر (١٨٩٩- ١٩٧٦) «الكينونة»، طاقة جوهرية تدعم كل شىء موجود وتضفى عليه الحياة. الكينونة متسامية. لا يستطيع المرء رؤيتها، لمسها أو سماعها، لكنه يستطيع ملاحظتها وهى تعمل من خلال الناس، الأشياء، والقوى الطبيعية المحيطة. نعلم، من وثائق العصر الحجرى الحديث والمجتمعات الرعوية أن ما كان موضع تبجيل ليس هو «كائن» بذاته، بل «الكينونة» بصفتها القوة المقدسة النهائية. كان من المستحيل تعريفها أو وصفها لأن الكينونة كلية الشمول، وعقولنا مُعدّة للتعاطى مع كائنات محددة يمكنها فقط المشاركة فيها بأسلوب محدود. لكن كان ثمة أشياء محددة أصبحت رموزا تعبر بجلاء عن سطوة الكينونة التى كانت تحفظها وتشعّ من خلالها بوضوح خاص. كان الحجر، أو الصخرة (التى كانت كثيرا ما ترمز للمقدس) تعبر عن استقرار الكينونة واستمراريتها، والقمر عن قدرتها اللانهائية على التجديد والتجدد، والسماء على سموها الشاهق، حضورها الكلى، وشموليتها، لم يكن أى من تلك الرموز يُعبد فى حد ذاته. لم يكن الناس يسجدون ويعبدون الصخرة كصخرة، كانت الصخرة مجرد بؤرة توجه انتباههم إلى جوهر الحياة الغامض. الكينونة تربط كل الأشياء ببعضها، البشر، الحيوانات، الحشرات، النجوم، والطيور، كلها تقاسمت الحياة المقدسة التى تُبقى على الكون بكامله. نعلم مثلا، أن القبائل الآرية القديمة التى كانت تسكن سهول القوقاز منذ حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد، كانت تبجل قوة غير

مرئية غير شخصية داخل أنفسهم وداخل جميع الظواهر. كانت جميع الأشياء تجلياً لهذه «الروح» كلية الانتشار (manya باللغة السانسكريتية).

من ثم، لم يكن ثمة اعتقاد فى وجود كائن أعلى واحد فى العالم القديم فإن أى مخلوق كهذا لا يمكنه سوى أن يكون كائنا - ربما أكبر وأفضل من أى شىء آخر، لكنه مازال حقيقة محدودة لا مكتملة. شعر الناس أنه من الطبيعى لهم أن يتخيلوا جنسا من الكائنات الروحية ذات طبيعة أسمى من طبيعتهم ويدعونهم «آلهة». فبعد كل شىء، فقد كان ثمة قوى عديدة غير مرئية فاعلة فى العالم - الرياح، الحرارة، العاطفة والهواء، وكانت كثيرا ما تتطابق مع الآلهة. مثلا، كان آجنى، الإله الآرى، هو النار التى غيرت الحياة البشرية، وكان يَرْمز، كإله مُشخصن، إلى الرابطة العميقة التى كان يشعر بها الناس مع هذه القوى المقدسة. كان الآريون يدعون آلهتهم «الكائنات الساطعة» (devas) لأن «الروح» كانت تسطع من خلالها بتوهج يفوق التوهج الذى تسطع به من خلال المخلوقات الفانية، لكن لم يكن لتلك الآلهة أية سيطرة على العالم! لم تكن كلية العلم، وكانت مجبرة، مثل جميع الأشياء الأخرى على الخضوع للنظام المتسامى الذى كان يُبقى على كل شىء فى الوجود، يرسل النجوم فى طريقها، يجعل الفصول تتبع بعضها، ويجبر البحار على البقاء داخل حدودها.

وبحلول القرن العاشر قبل الميلاد، حينما استقر بعض الآريين فى شبه القارة الهندية واستوطنوها، أعطوا «الحقيقة الجوهرية» اسما جديدا. كان البرهمن هو المبدأ غير المرئى الذى يمكّن كل شىء من النمو والازدهار. كان قوة أعلى، أعمق وأكثر جوهرية من الآلهة. ولأنه كان أسمى من حدود الشخصية، كان من غير الملائم كلية أن يصلى الناس للبرهمن أو أن يتوقعوا أن يستجيب لدعائهم. كان البرهمن هو الطاقة المقدسة الذى يبقى على عناصر العالم المتباينة متوحدة ويحفظها من الانهيار. كان البرهمن درجة من

الحقيقة أسمى إلى ما لا نهاية من المخلوقات الفانية التى كان الجهل ، المرض، الألم والموت يجعل حياتها محدودة. لا يمكن لأحد أبدا تعريف البرهمن لأن اللغة تشير فقط إلى كائنات فردية. أما البرهمن فكان «الكل»: كان كل ما هو موجود وأيضا المعنى الباطنى للوجود كله.

وعلى الرغم من عدم استطاعة البشر التفكير فى البرهمن، إلا أنهم تصلهم إيحاءات عنه من خلال تراتيل الريج ڤيدا Rig Vida، أكثر الكتب المقدسة الآرية أهمية. وبالتقابل مع صيادى لاسكو، يبدو أن الآريين لم يكونوا يفكرون، بسهولة، من خلال الصور. كان الصوت هو أحد رموزهم الرئيسية للمقدس، وذلك لأن فاعلية الصوت وطبيعته غير الملموسة بدت تجسيدا مناسبا بخاصة للبرهمن كلىّ الحضور. حينما كان الكاهن يرتل ترانيم الڤيدا، كانت الموسيقى تملأ الجو وتدخل وعى جمهور المصلين بحيث يشعرون أن المقدس يحطيهم ويتسرب داخلهم. لم تكن تلك التراتيل، التى نُزِّلت على «المتنبئين rishis» القدامى تتحدث عن المبادئ التى على المؤمنين اعتناقها، بل تشير إلى الأساطير القديمة بأسلوب مراوغ محير لأن الحقيقة التى كانت تحاول إيصالها لا يمكن احتواؤها فى نص منطقى منمق. كان جمالها صادماً بدرجة كان ينتقل معها الجمهور إلى حالة من الرهبة، الدهشة، الخوف والبهجة. كان عليهم الوصول إلى حل لغز الأهمية التحتية لتلك القصائد المتناقضة التى تجمع معا أشياء تبدو لا علاقة لها ببعضها، تماما مثلما يُجمّع البرهمن الخفى عناصر الكون المتباينة ويجعل منها وحدة متجانسة.

طور كهنة البرهمن أثناء القرن العاشر ق. م المسابقة البرهمنية التى أصبحت فيما بعد نموذجا للخطاب الدينى الصحيح. كان المتسابقون يبدأون بالذهاب إلى خلوة فى الغابة حيث كانوا يمارسون تدريبات روحانية مثل الصوم والتحكم فى التنفس التى كانت تعمل على تركيز فكرهم وتستولد نمطاً

آخر من الوعى. ثم يصبح بإمكان المسابقة أن تبدأ. كانت الغاية هى وجود صيغة شفاهية لتعريف البرهمن، وفى أثناء العملية كان يُدفع باللغة إلى حدها الأقصى حتى تنهار فى النهاية ويدهم الناس إدراك مفعم بالآخر المقدس الذى يفوق كل وصف ويستعصى على كل تعبير. يطرح المتحدى سؤالا مُلغزاً، ويكون على المتنافس الإتيان بإجابة كافية وغامضة فى آن. كان الفائز هو المتسابق الذى يُلزم منافسه الصمت – وفى لحظة الصمت تلك، حينما تكشف اللغة عجزها، يكون البرهمن حاضرا، تتجلى كينونته فقط من خلال الإدراك المذهل لعقم اللغة.

من ثم لم تكن «الحقيقة» النهائية إله إلهاً مشخصنا، بل سراً متساميا لا يمكن سبر أغواره أبدا. أسماه الصينيون الداو، «الطريق» الجوهرى للكون. ولأنه كان يحوى الحقيقة كلها، فلم يكن للداو صفات، أو هيئة، يمكن للناس أن يخبروها، لكنه لا يرُى أبدا، لم يكن إلها، كان سابقا على السماء والأرض، وخارج نطاق الألوهية. لا يمكن لإنسان أن يقول أى شىء عن الداو لأنه أسمى من المصنفات العادية، هو أكثر قدما من الأزمنة السحيقة لكنه ليس مسنًا؛ ولأنه أبعد كثيرا من أى شكل لـ «الوجود» يعرفه البشر، فلم يكن كائنا أو لا كائنا. كان يضم كل الأنماط والأشكال والقدرات المتباينة العديدة التى تجعل العالم عالما وترشد التدفق اللانهائى للتغير والصيرورة الذى نراه فى كل مكان حولنا. كان يوجد فى نقطة تصبح فيها كل التمايزات التى تسم أساليب تفكيرنا المعتادة غير ذات علاقة.

كان ثمة مفهوم مماثل للمطلق فى الشرق الأوسط، تلك المنطقة التى تطورت فيها الديانات التوحيدية التى اعتنقها الغرب فى فترة لاحقة. كان اللفظ الأكادى المعبر عن روح الكون فى منطقة ما بين النهرين هو إيلام ilam، قوة وضاءة تتسامى على أى إله بعينه. لم تكن الآلهة هى مصدر ilam، لكنها،

ومثل كل شىء آخر، بإمكانها أن تعكس نورها فقط. كانت الخاصية الرئيسية لإيلام هى «القداسة ellu» وهو لفظ له مدلولات «السطوع» النقاء والنورانية. كانت الآلهة تسمى «الذوات المقدسة» لأن قصصها الرمزية وصورها وتماثيلها وعباداتها تثير توهجا ellu فى نفوس العابدين. أسمى الإسرائيليون إلههم الراعى «الذات المقدسة» لإسرائيل إلوهيم Elohim، وهو اللفظ العبرى البديل لـ ellu الذى أوجز كل ما يعنيه المقدس بالنسبة للبشر. لكن القداسة لم تكن مقصورة على الآلهة لأنهم اعتقدوا أن أى شىء تحدث بينه وبين المقدس صلة تنتقل إليه القداسة: الكاهن، الملك، أو المعبد – بل حتى الأوعية التى تستخدم فى الطقوس. كان لابد لشعوب الشرق الأوسط أن تعتبر قَصْر ilam على إله بعينه أمرا مفرط التقييد، بدلا من ذلك تخيلوا مجْمعا مقدسا، مجلسا للآلهة من رتب كثيرة مختلفة تعمل معا للحفاظ على الكون، وتعبر عن تعقيد المقدس متعدد الأوجه.

شعر الناس بتوق إلى المطلق، وأحسوا بحضوره فى كل مكان حولهم، وبذلوا جهدهم لتنمية حسهم بهذا التسامى من خلال طقوس إبداعية. لكنهم أيضا كانوا يشعرون بالاغتراب عنه. طورت جميع الثقافات تقريبا أسطورتها لفردوس مفقود طُرِد منه الرجال والنساء فى بداية الزمان. عبرت تلك الأسطورة عن قناعة بدئية بأنه لم يقصد للحياة أن تكون مُشظّاة، صعبة ومليئة بالآلام لهذه الدرجة. بل لابد وأنه كان ثمة زمن تمتع الناس فيه بقسط أكبر من اكتمال الكينونة ولم يكونوا فيه مواضيع للأسى، المرض، الحرمان، الوحدة، الشيخوخة والموت.

كان ذلك الحنين هو جوهر عقيدة «الجغرافيا المقدسة»، وهى أكثر الأفكار الدينية قدما وأكثرها شمولية. بدت بعض الأماكن التى شذت عن تلك القاعدة – مثل الكهوف التى تمثل متاهات معقدة بمنطقة دوردون – بدت وأنها تتحدث

عن «شيء آخر». كان هذا المكان المقدس أحد أقدم رموز «الإله» وأكثرها انتشارا. كان «مركزا» مقدسا أتى بالسماء والأرض معا حيث بدت القدرة الإلهية فاعلة ومؤثرة بخاصة. تخيلت إحدى الصور الشعبية، التى وجدت فى ثقافات كثيرة تلك الطاقة المقدسة المثمرة المخصّبة تتفجر من تلك الأماكن المركزية وتتدفق فى أنهار مقدسة أربعة إلى أقسام الأرض الأربعة. كان الناس يستقرون فقط فى مواقع تجلّى فيها المقدس ذات مرة لأنهم أرادوا أن يعيشوا قريبا، بقدر الإمكان، من ينابيع الكينونة ليصبحوا ذات يوم كُلا مكتملا كما كانوا قبل طردهم من الفردوس.

يصل بنا هذا إلى المبدأ الثانى للدين قبل الحديث. لم يكن يُقصد للخطاب الدينى أن يفهم بحرفيته لأنه اعتقد أنه من الممكن فقط الحديث عن حقيقة تسمو على اللغة سوى من منطلقات رمزية. كانت قصة الفردوس المفقود أسطورة، لا سردا واقعيا لحادث تاريخى. لم يكن من المتوقع أن «يصدقها» الناس على مستوى مجرد. فهى مثل كل الأساطير كانت تعتمد على طقوس مرتبطة بعبادة مكان مقدس بعينه وذلك من أجل جعل ما يُرْمز إليه واقعا فى حياة المشاركين فى الطقوس.

ينطبق الشيء ذاته على أسطورة الخليقة التى كانت ذات مركزية فى الديانات القديمة والتى أصبحت الآن خلافية وموضع جدل فى العالم الغربى لأن قصة سفر التكوين تتصادم مع العلم الحديث. لكن، وحتى مطلع الفترة الحديثة، لم يكن أحد يقرأ قصة نشأة الكون كسرد واقعى لأصل الحياة. فى العالم القديم كان الحس الحاد القاسى بمشروطية الوجود وهشاشته هو ما ألهم هذه القصة. لم أتى أى شيء، بإطلاقه، إلى الوجود، فى الوقت الذى كان بالإمكان ألا يوجد شيء؟ لَمْ تتوفر أبدا إجابة بسيطة أو حتى ممكنة عن هذا السؤال، لكن الناس يمضون يطرحونه، ويدفعون بتفكيرهم وعقولهم إلى

الحدود القصوى لما باستطاعتنا معرفته. تمدنا اليوم إحدى أقدم قصص نشأة الكون بمعلومات مفيدة. في الأزمان السحيقة، كان يُعتقد أن أحد الآلهة، عُرِف بصفته «الإله العالي» أو «إله السماء» لأنه كان يسكن أقصى الأماكن القصية بالسماء، قد خلق بمفرده السماء والأرض. أسماه الآريون دياوس پيتر Dyaeus Pitr والصينيون تيان Tian («السماء») وأسماه قدامى العرب الله، والسوريون إل عليون (أعلى إله). لكن الإله العالي أثبت أنه غير قابل للحياة والتطور ومن ثم تم التخلي عن أسطورته.

كانت أسطورته تعاني من تناقض داخلي. كيف لمجرد كائن – حتى ولو كان كائناً شامخاً – أن يكون مسئولا عن الكينونة ذاتها؟ حاول الناس، وكأنما في استجابة منهم لهذا الاعتراض، إعلاءه وجعله يحتل مستوىً خاصا. اعتُبر على درجة من التعالي بحيث لا تناسبه الطقوس العادية: لم تقدم أية أضحيات تكريما له، ولم يكن له أية كهنة، أية معابد أو أسطورة خاصة به، كان الناس يلجأون إليه في الطوارئ، لكن بخلاف ذلك، فنادرا ما كان يُحدثِ أثرا في حياتهم اليومية أو يتدخل فيها. وبعد أن تم اختزاله في مجرد تفسير – ما أسمي في أوقات لاحقة بالعلة الأولى أو المحرك الأول – أصبح إلها عديم الجدوى أو زائدا Deus otiosus، ثم تلاشى تدريجيا من وعي أُناسه. كثيرا ما يصور الإله العالي في غالبية الأساطير شخصية سلبية عاجزة، ونظراً لعجزه عن السيطرة على الأحداث، يتراجع إلى هامش البانثيون (هيكل الآلهة) ثم يضمحل ويختفي في النهاية. تتحدث اليوم أيضا بعض الشعوب الأصلية – الأقزام، سكان أستراليا الأصليين، سكان فيجي – عن إله عالٍ خلق السماء والأرض، لكنه مات أو اختفى، هكذا يخبرون الأنثروبولوجيين، «لم نعد نهمه، لقد تركنا ورحل بعيداً».

لا يمكن لأي إله البقاء إلا إذا تحقق حضوره من خلال نشاط الطقوس

العملى، وغالبا ما ينقلب الناس على الآلهة التى لا تساعدهم. غالبا ما تخلع أجيال الآلهة الأصغر والأكثر دينامية - آلهة العواصف، الحبوب، الحرب - الإله العالى على المستوى الأسطورى حيث كانت تلك الآلهة ترمز إلى حقائق مهمة ذات علاقة بالبشر. فى الأساطير الإغريقية، قام كرونوس ابن أورانوس (السماء) الإله العالى بخصى أبيه بوحشية وتولى عرشه. وفيما بعد أطاح بأورانوس ابنه زيوس كبير الآلهة الأصغر سنا، التى كانت تعيش على جبل الأوليمب ، الأكثر قربا من البشر. أما اليوم، فنجد أن إله الديانات التوحيدية، قد تدهور مفهومه بين أقوام عديدة فى الغرب بخاصة ليصبح «إلها عاليا» ومن ثم، لم تعد العبادات والطقوس التى كانت قد جعلت منه رمزاً مُقْنِعا للمقدس، فاعلة، وتوقف كثير من الناس فى الغرب، عن المشاركة فيها، ومن ثم، زوت حقيقته وتلاشت، بل يمكن حتى القول إنه قد «رحل بعيداً».

فى العالم القديم، حل محل الإله العالى قصص عن الخلق، لها علاقة بالبشر، لكنه لم ينظر إليها أبدا على أنها مبنية على وقائع. تصر إحدى ترانيم القيدا المتأخرة أن بغير إمكان أى أحد - ولا حتى الإلهة العظمى - أن تبين كيف نتج شىء من العدم. لم تصف أسطورة الخلق الجيدة حادثا فى الماضى البعيد، بل كانت تخبر الناس بشىء جوهرى عن الحاضر. كانت تذكرهم أن الأشياء يجب أن تسوء قبل أن تتحسن، أن الإبداع يتطلب تضحية بالذات ونضالاً بطولياً، وأن على الجميع بذل الجهد من أجل الحفاظ على طاقات الكون وإقامة المجتمع على أسس راسخة. كانت قصة الخلق علاجية فى المقام الأول. كان الناس يريدون معرفة شىء عن الانفجار الهائل الداخلى للطاقة الذى - وبشكل ما - أتى بالعالم الذى نعرفه إلى الوجود، وذلك من أجل أن يتلوا أسطورة للخلق حينما يكونون بحاجة إلى أن تُسرَّب إليهم بعض الطاقة والقدرة المقدسة. مثلا أثناء الأزمات السياسية، المرض، أو بناء منزل جديد، وغالبا ما كان يعاد تمثيل أسطورة الخلق فى مراسم الاحتفال بالعام الجديد،

وفيما العام القديم يرحل. لم يشعر أحد أن عليه «الاعتقاد» فى قصة خلق بعينها، بل حقا، فقد كان لدى كل ثقافة عدد من قصص الخلق، كان لكل منها الدرس الخاص المستفاد منها، ولم يكن لدى الناس أية موانع لإبداع قصة جديدة لدى تغير الظروف.

حينما تخلى الناس عن أسطورة «الإله العالى» اختفى من العالم القديم مفهوم الخلق «من العدم». اعتقد الناس آنذاك أن الإله بإمكانه فقط مساعدة العملية الإبداعية (عملية الخلق) الجارية. فى القرن العاشر، اقترح متنبئ هندى أن العالم بدأ فى الظهور من خلال تضحية بدئية – كان ذلك متقبلا فى الهند، حيث كان ينظر للنباتات الجديدة على أنها تنبثق متبرعمة من الشجرة المتعفنة، من ثم كان من الطبيعى الاعتقاد بأن الموت ينجم عنه حياة جديدة. تخيل المتنبئ rishi (الشخص أو Perusha) أول نموذج أصلى للإنسان يخطو بكامل إرادته الحرة إلى مكان التضحية ويسمح للآلهة أن يميتوه، وهنا انبثق كل شىء – الحيوانات، الخيول، الماشية، السماء، الأرض، الشمس، القمر، بل حتى بعض الآلهة– من جثته. كبسلت هذه الأسطورة حقيقة مهمة. حينما لا نتشبث بذواتنا بل نكون مستعدين للتخلى عنها نصل إلى أسمى حالاتنا الإبداعية.

لم تتأثر قصص نشوء الخليقة بالتكهنات العلمية المعاصرة لأن مجالها كان العالم الباطنى لا الظاهرى. اضطلع كهنة ما بين النهرين بالقيام بأول ملاحظات فلكية ناجحة وبينوا أن الأجسام السماوية السبع التى أبصروها – عُرِفت فيما بعد بالشمس والقمر، عطارد، الزُهرة، المريخ، المشترى، وزحل – كانت تتحرك فى ممر دائرى خلال الأبراج. بيد أن ريادة السومريين فى تخطيط المدن كانت المصدر الرئيسى الذى استلهموا منه قصتهم عن الخلق. أنشئت أولى المدن، التى عرفها التاريخ، بالهلال الخصيب فى سومر حوالى

عام ٣٥٠٠ ق م. كان مشروعا مغامرا، تطلب شجاعة ومثابرة هائلة وذلك لأن مياه فيضانات دجلة والفرات كانت تكتسح، باستمرار، المباني المقامة من قوالب الطين. بدا للسومريين وأن حضارتهم الحضرية كان لابد لها وأن تغرق مرة أخرى فى أعماق بربرية الريف القديمة، من ثم، كانت إقامة المدن بحاجة إلى ضخ منتظم للطاقة المقدسة. وعلى الرغم من ذلك، بدا تمجيد المدينة كمكان مقدس إنجازا استثنائيا. كانت بابليون «بوابة الآلهة Bab ilani»، موقع التقاء الأرض بالسماء، وأعادت خلق الفردوس المفقود، والزجورات Ziggurat (الهياكل السومرية القديمة) أو برج المعبد، فى إساجيلا واستنسخت الجبل الكونى أو الشجرة المقدسة التى كان الرجال والنساء يتسلقونها ليلتقوا بالآلهة.

من الصعب فهم قصة الخليقة كما جاءت بسفر التكوين بدون الإحالة إلى ترنيمة الخلق لبلاد ما بين النهرين التى تعرف بكلمتيها الافتتاحيتين «إنوماإليش Enuma Elish». تبدأ هذه القصيدة بوصف نشوء الآلهة من المادة المقدسة البدئية، وخلقها، فيما بعد للسماء والأرض، لكنها أيضا تُعتبر تأملا فى بلاد ما بين النهرين المعاصرة آنذاك مادة الكون الخام التى خرجت منها الآلهة، هى مادة موحلة غير محددة قريبة الشبه بتربة المنطقة الطمية. كانت الآلهة الأولى – تيمات Tiamat، أو المحيط الأول وتنيّن البحر، وآبسو، الهاوية، (Abyss)، إله المياه العذبة، ومامو Mumo (الرّحم) إلهة الشواش، جزءا لا يتجزأ من العناصر الكونية وكانت تتشارك فى خمول البربرية البدئية والشواش الذى لا شكل له: «حينما امتزج الحلو والمر معا، لم تكن أية بوصة قد جُدِلت، ولم تكن أية أعشاب قد عكّرت المياه، كانت الآلهة بدون أسماء، أو صفات خاصة أو مستقبل». لكن ظهرت آلهة جديدة، كل زوج منها مميز عن الزوج الذى سبقه وبلغت ذروتها فى مردوخ الرائع إله الشمس، الأكثر تطورا بين جنس الآلهة. لكن، لم يكن باستطاعة مردوخ إنشاء الكون قبل التغلب على

ركود تيمات وبلادتها فى معركة مهولة. وفى النهاية، وقف منفرج الساقين أعلى جثة تيمات هائلة الحجم، وشقها نصفين ليصنع السماء والأرض، وخلق أول رجل بأن خلط دماء إحدى الآلهة المهزومة بحفنة من التراب. وبعد هذا الانتصار، استطاعت الآلهة تشييد مدينة بابليون وترسيخ الطقوس «التى منها يستمد الكون بنيته، أصبح العالم الخفى واضحا، وحُدِّدت للآلهة أماكنها».

لم تكن ثمة فجوة وجودية تفصل تلك الآلهة عن بقية الكون، فلقد أتى كل شىء إلى الوجود من نفس المادة المقدسة. كانت جميع الكائنات تتشارك فى المأزق ذاته، وكان عليها أن تشارك فى معركة لا تنتهى ضد خمول الشواش المدمر. كانت ثمة حكايات مماثلة فى سوريا، حيث كان على الإله بعل، إله العواصف والمطر الذى يمنح الحياة، أن يحارب التنين لوتان، رمز الشواش، ويَمْ، إله المحيط والمياه الجارية، وموت، إله العقم، كى يستطيع إنشاء حياة متحضرة، أيضا، روى الإسرائيليون قصصا عن إلههم يهوه الذى ذبح وحوش البحر من أجل تنظيم الكون. فى بابليون، كانت إنوما إليش Enuma Elish تُرتّل فى اليوم الرابع من عيد العام الجديد بإساجيلا، وكان هذا إعادة تمثيل عَمِل على استمرار العملية التى بدأها مردوخ والتى بعثت بالنشاط فى تلك الطاقة المقدسة. أيضا، كانت تجرى محاكاة طقوسية للمعركة، وطقوس عربدة تستعيد حالة فوضى الشواش والعداء، كانت العودة الرمزية إلى «العدم» البدئى عديم الشكل، فى العبادات القديمة لا غنى عنها لأى خلق جديد. لم يكن بالإمكان التحرك قدما إلا بالتخلى عن الأحوال غير المرضية للحظة الراهنة، والغرق فى الفوضى المفعمة بالقوة الخلاقة، والبدء من جديد.

وفيما مضت الحياة تستقر أصبح لدى الناس من الوقت ما يمكنهم من تطوير الروحانية الباطنية. كان للآريين الهنود، كما كان الحال دائما، الريادة فى ذلك التوجه، حيث توصلوا إلى الاكتشاف الرائد أن البرهمن، الوجود

ذاته، كان أيضا أساس النفس البشرية. لم يكن المتسامى خارجياً، أو غريبا عن البشرية، بل كان الاثنان مترابطين بأسلوب لا ينفصم عراه. وفيما بعد، أصبحت تلك البصيرة مركزية فى المسعى الدينى فى جميع الموروثات العظمى. فى نصوص اليوپانشاد Upanishad. (مجموعة من الكتابات الفلسفية تغطى فترة زمنية قدرها حوالى ٧٠٠ عام ق. م وأصبحت مقدسة لدى الهنود) الأولى والتى أُلفت فى القرن السابع قبل الميلاد، أصبح البحث عن هذه «النفس» المقدسة (atman) مركزيا فى الروحانية القيدية Vedic (يعنى لفظ veda سفر المعرفة). لم يطلب حكماء اليوپانشاد من مريديهم «الاعتقاد» فى هذا لكنهم أدخلوهم فى طقوس تكريسية التى من خلالها كانوا يكتشفونها بأنفسهم فى سلسلة من التدريبات كانت تجعلهم ينظرون إلى العالم بأسلوب مختلف. كانت تلك المعرفة المكتسبة عملياً تأتى معها بتحرر مبهج من الخوف والتوتر.

باستطاعتنا من خلال Chandogya Uranishad أن نكتسب لمحة قيمة عن مسيرة طقوس التكريس. هنا، يعمل الحكيم العظيم Uddaka Aruni بصبر وأناة على استيلاد تلك البصيرة المُنْقذَة داخل ابنه Shvetateku ويجعله يؤدى سلسلة من المهام. فى أكثر من تلك المهام شهرة كان على شفتاتكو أن يترك قالبا من الملح فى كأس كبيرة من الماء طوال الليل، ووجد أنه، حتى بالرغم من ذوبان الملح، كانت المياه مالحة المذاق. بيّن له أداكا الأمر بالقول «بالطبع لم تره هناك يا ولدى، وعلى الرغم من ذلك، كان (الملح) دائما موجودا هناك». وهكذا أيضا برهمن غير المرئى، جوهر روح العالم الباطنية، بأجمعه، «وأنت أيضا هذا يا شفتاتكو». ومثل الملح، لا يمكن رؤية البرهمن، لكنه موجود فى كل شىء حى. هو الجوهر غير المرئى لبذرة التين بالغة الصغر والتى منها تنمو الشجرة العملاقة. وبالرغم من ذلك، حينما فحص شفتاتكو البذرة لم يستطع رؤية شىء بإطلاقه. «كان البرهمن هو الطاقة التى

تمنح كل جزء من الشجرة الحياة وعلى الرغم من ذلك لا يمكن تحليلها أو تحديد مكانها. تشارك كل الأشياء فى نفس الجوهر، لكن لا تدرك غالبية الناس ذلك، يتخيلون أنهم استثنائيون متفردون ويتشبثون بتلك الخصوصيات – غالبا بقلق بالغ وإهدار للجهد. لكن تلك الخاصيات، فى واقع الأمر، لا تبقى أطول من خاصيات مياه الأنهار التى تصب فى نفس المحيط. بمجرد أن تمتزج تصبح «المحيط فقط» ولا يمكن الجزم بتفردها بأن نصر على أنها هذا النهر أو ذاك. مضى أُدالاكا مؤكداً «وبنفس الأسلوب يا ولدى تصل كل تلك المخلوقات إلى الموجود ولا تدرك أنها قد وصلته» تندمج كلها فى البرهمن سواء كانت نمورا، ذئاباً أم بعوضا. من ثم كان التشبث بالذات الدنيوية وهماً يؤدى بأسلوب لا مفر منه إلى الألم والإحباط والتشوش، والتى يستطيع المرء تحاشيها، فقط، باكتساب المعرفة العميقة المحرِّرة بأن البرهمن هو روحها أو نفسها (جوهرها)، أصدق ما فيها.

كان حكماء اليوپانشاد بين أول من عبر عن أحد المبادئ الشمولية الأخرى للدين – ذلك الذى كان قد تم تناوله بإيجاز فى أسطورة پوروشا Purusha (إله الشمس «المغذى» الذى يحفظ القطعان ويجلب الرخاء): لا تصبح حقائق الدين متاحة إلا إذا كان الإنسان مستعداً للتخلص من الأنانية والطمع والانشغال بالذات، تلك الأمور التى قد تكون متعضونة فى تفكيرنا وسلوكنا والتى هى أيضا مصدر الكثير من آلامنا. أسمى الإغريق هذه العملية «التفريغ Kenosis» بمجرد أن يتخلى الإنسان عن التوق للإعلاء من شأن ذاته، والحط من شأن الآخرين، عن الرغبة فى جذب الانتباه إلى صفاته الخاصة المتفردة من أجل أن يضمن أنه يفضل الآخرين، يخبر حسا جارفا بالسلام. كُتبت الأسفار الأولى من اليوپانشاد حينما كانت الجماعات الآرية الهندية فى المراحل المبكرة للتحضر، كان التفكير المنطقى العقلانى قد ساعدهم على السيطرة على محيطهم. لكن الحكماء ذكروهم أنه ثمة أشياء – مثل

الشيخوخة، والمرض والموت – لا يستطيعون السيطرة عليها، وثمة أشياء – مثل ذواتهم الجوهرية – تخرج عن نطاق إدراكهم العقلى. حينما يتعلم الناس، نتيجة للتدريبات الروحية التى تمارس بعناية، أن يتقبلوا هذا العجز عن المعرفة – ما لا سبيل إلى معرفته – ويعتنقوه، يجدون أنهم يخبرون حسا بالانعتاق.

بدأ الحكماء بتفحص تعقيدات النفس البشرية بمهارة لافتة، اكتشفوا اللاوعى، قبل فرويد بوقت طويل. لكن الروح atman جوهر الشخصية الأكثر عمقا، راوغتهم. وتحديدا لأنها كانت تتماهى مع البرهمن كان لا يمكن تعريفها. لم يكن لها أية علاقة بحالاتنا النفسية/ العقلانية، أو شبَهٌ بأى شىء فى تجاربنا العادية، من ثم لا يمكن الحديث عنها سوى بتعبيرات النفى. أوضح ذلك ياجناڤالكيا حكيم القرن السابع بقوله: «عن هذه الذات [atman] بالإمكان فقط أن نقول عنها «لا... لا»:

«لا تستطيع إبصار المبصر الذى يقوم بعملية الإبصار. لا تستطيع سماع السامع الذى يقوم بالسماع، لا تستطيع التفكير مع المفكر الذى يقوم بالتفكير، ولا يمكن أن تدرك المُدْرك الذى يقوم بالإدراك. إن هذه «الذات» داخل الكل (البرهمن) هى جوهر ذاتك».

وكما كان الحال فى مسابقة البراهموديا Brahmodya، كان أى نقاش للأتمان atman فى اليوپنشاد ينتهى دائماً بالصمت، أو الاعتراف الغامض بأن الحقيقة الجوهرية تخرج عن نطاق قدرة اللغة.

لا يمكن للخطاب الدينى الحق أن يؤدى إلى حقيقة واضحة، مميزة يمكن «إثباتها» إمبريقيا. ومثل البرهمن، فإن الآتمن atman لا يمكن «إدراكها». بإمكان الفرد أن يعرّف شيئا فقط إذا رآها كشىء منفصل عن ذاته. لكن «حينما يصبح الكل [البرهمن] جزءا من ذات الشخص نفسه، إذن فمن هناك بالنسبة لى لأراه وبأية وسيلة؟ من هناك بالنسبة لى لأفكر فيه وبأية وسيلة؟» لكن، إذا

تعلم الإنسان أن «يدرك» أن حقيقة «ذاته» الأكثر مصداقية متطابقة مع البرهمن، حينذاك يفهم أيضا أنها «ليست عرضة للجوع، العطش، الأسى والوهم، أو الشيخوخة والموت». لا نستطيع الوصول إلى هذه البصيرة بالمنطق العقلانى. بل على الفرد اكتساب النزوع إلى التفكير خارج الذات العادية «الصغيرة»، ومثل أية حرفة أو مهارة، كان ذلك يتطلب تدريباً طويلاً صعبا ومكرسا.

كانت اليوجا إحدى أهم الوسائل التطبيقية التى مكنت الناس من الوصول إلى نسيان الذات هذا. وبخلاف اليوجا التى تمارس اليوم، فلم تكن تدريبات إيروبيكية، بل تعطيلاً منهجيا للسلوك الغريزى وأنماط التفكير المعتادة. كانت تتطلب الكثير من الجهد العقلى والنفسى، وكانت فى البداية مؤلمة جسديا. كان على ممارس اليوجا أن يفعل نقيض ما يأتيه بشكل طبيعى. كان يجلس ثابتا لدرجة أن يبدو مثل النبات أو التمثال، لا الإنسان. كان يتحكم فى تنفسه، أحد أكثر وظائفنا الجسدية تلقائية وضرورة، حتى يتكسب القدرة على المكوث مدة طويلة دونما تنفس على الإطلاق. تعلم إسكات الأصوات التى تمر فى عقله والتركيز «على نقطة واحدة» لمدة ساعات كل مرة. وإذا ثابر المرء، كان يجد أنه يصل إلى حالة من تحلل الوعى العادى تُستبعد فيها الـ «أنا» من فكره.

يجد ممارسو اليوجا اليوم أن هذه التدريبات التى لها تأثيرات جسدية وعصبية يمكن قياسها، تحفز شعورا بالسكينة والتناغم ورباطة الجأش يناظر تأثير الموسيقى. ثمة شعور بالرحابة والنعيم يراه ممارسو اليوجا طبيعيا تماما، فى متناول أى شخص يمتلك الموهبة والقدرة على الممارسة العملية. وفيما تختفى الـ «أنا»، تكشف الأشياء الرتيبة عن خاصيات غير متوقعة، وذلك لأن الممارس لا ينظر إليها، كما اعتاد، من خلال فلتر احتياجاته ورغباته الذاتية التى تعمل على تشوهها. حينما تتأمل ممارسة اليوجا تعاليم مُعلمها، فهى لا تتقبلها فكريا فقط، بل إنها تخبرها بحيوية ووضوح بدرجة تصبح

معرفتها بها، وكما يذكر النص «مباشرة»، وفيما تتجنب تلك التعاليم العمليات المنطقية التى تسلكها أية مهارة تُكتسب عملياً، تصبح جزءاً من عالمها الباطنى.

لكن لليوجا أيضا بعدها الأخلاقى. لم يكن يسمح للمبتدئ البدء فى تأدية أى تدريب من تدريبات اليوجا إلا بعد أن يُكمل برنامجا أخلاقيا مكثفا. كان «عدم الأذى ahimsa» على قائمة متطلبات ذلك البرنامج. لا يجوز لممارس اليوجا أن يؤذى بعوضة، أو يأتى بإيماءة تنم عن الضيق، أو يتحدث بقسوة إلى الآخرين، بل عليه أن يُبقى على مودة دائمة مع الجميع. وإلى أن يقتنع معلمه أن ذلك السلوك قد أصبح طبيعة ثانية له، لا يستطيع الممارس حتى الجلوس فى وضع اليوجا. ينجم الكثير من العنف، والإحباط، والعداء والحنق الذى يفسد سلامنا النفسى والعقلى من الأنانية المعوّقة، لكن وكما تقول النصوص، بمجرد أن يتقن الطامحون إلى ممارسة اليوجا، الإيثارية «يخبرون فرحا يفوق الوصف».

أدت خبرة اليوجا بالحكماء إلى إبداع أسطورة خلق جديدة. فى البداية كان ثمة «شخص» واحد فقط، نظر حوله واكتشف أنه وحيد. بهذه الطريقة أصبح على دراية بنفسه وصاح: «ها أنا هنا» وهكذا ولدت الـ «أنا» مبدأ الذات. على الفور، شعر «الشخص» بالخوف، لأننا نشعر غريزيا أن علينا حماية الذات الهشة من أى شىء يهددها، لكن حينما تذكر «الشخص» أنه كان وحيداً وأنه لم يكن ثمة تهديد، غادره خوفه.

لكنه كان وحيدا، وهكذا شق جسده نصفين وأوجد رجلا وامرأة، أنجبا معا كل شىء فى الكون «حتى النمل نفسه». وتحقق «الشخص» أنه على الرغم من أنه لم يعد وحيدا، فلم يكن ثمة ما يخشاه. ألم يكن متماهيا مع البرهمن، الـ «كل»؟ كان متوحدا مع كل شىء من صنعه، بل حقا فقد كان هو صانع نفسه. كان حتى هو من خلق الآلهة التى كانت، جوهريا، جزءا من نفسه:

«حتى الآن، إذ عرف رجل أنه «أنا برهمن»، بهذا الأسلوب يصبح هو العالم كله. لا تستطيع حتى الآلهة مع ذلك، لأنه يصبح ذاتها atman نفسها. من ثم، حينما يُبجّل رجل إلها آخر معتقدا أنه «كائن، وأنا آخر» فهو لا يفهم».

أوضح ياجناڤالكيا، أن تلك البصيرة تأتى معها بفرحة تناظر المضاجعة الجنسية، حينما يفقد المرء كل حس بالثنائية ويصبح «غير واع بكل شيء فى الداخل أو فى الخارج». لكنك لن تصل إلى هذه الخبرة إلا إذا أديت تدريبات اليوجا.

أيضا، وجدت موروثات دينية أخرى أن هذه المبادئ الجوهرية لا غنى عنها: الجينية (ديانة هندية ظهرت فى القرن السادس ق. م)، البودية، الكونفوشية، الداوية، وأيضا الديانات التوحيدية الثلاث، أى اليهودية والمسيحية والإسلام. كان لكل منها عبقريتها الخاصة ورؤيتها المميزة، رغم ما ساد ممارسات كل منها من بعض العيوب. لكنها جميعها تتوافق على هذه المبادئ المركزية. لم يكن الدين شأنا نظريا تجريديا. مثلا، لم يكن صدر البودا يتسع للتكهنات الكهنوتية. كان أحد الرهبان فيلسوفا فاشلا، وبدلا من أن يمارس تدريبات اليوجا، كان يطارد البودا بأسئلته الميتافيزيقية: «أهناك إله؟ هل خُلِق العالم فى زمن محدد أم أنه ظل موجودا منذ الأزل؟» قال له البودا إنه يماثل رجلا أصابه سهم مسمم ورفض أى علاج حتى يكتشف اسم مهاجمه وأية قرية كان يسكنها، وبذا يموت قبل أن يحصل على معلوماته عديمة الجدوى.

ما الفرق الذى يحدثه أن تتوصل، نظريا، إلى أن العالم من خلق إله؟ ستظل الآلام، والكراهية، والأحزان موجودة. ورغم جاذبية مثل هذه القضايا، لكن البودا رفض مناقشتها لأنها كانت غير ذات علاقة: «يا تلاميذى، لن تساعدكم، إنها غير مجدية فى مسعاكم نحو القداسة، لن تؤدى إلى السلام وإلى معرفة النيرڤانا مباشرة».

دائما ما رفض البودا تعريف النيرڤانا. لأنها لا يمكن فهمها نظريا، ولا يمكن شرحها لأى أحد لا يضطلع بالجهد العملى للتأمل والتراحم. لكن بوسع الجميع ممن يكرسون حياتهم/ حياتهن لأسلوب الحياة البودى الوصول إلى النيرڤانا، وتلك حالة طبيعية تماما. بيد أنه يحدث أحيانا أن يتحدث البوديون عن النيرڤانا باستخدام نفس التعبيرات التى يستخدمها الموحّدون للحديث عن الله: إنها «الحقيقة» الـ «شاطئ الآخر» الـ «سلام» «الخلود» و«العالم الآخر»؛ النيرڤانا مركز ساكن يضفى معنى على الحياة، واحة للسكينة، مصدر للقوة التى يكتشفها البشر فى أعماق كيانهم. أما من منطلق دنيوى محض، فهى «عدم» أو «لا شىء» لأنها لا تماثل أى واقع بإمكاننا التعرف عليه فى وجودنا هذا الذى تسيطر عليه الذات. لكن هؤلاء الذين تمكنوا من العثور على السلام المقدس والوصول إلى تلك الحالة اكتشفوا أنهم يعيشون حياة أكثر ثراء بدرجة لا تضاهى. لم يكن ثمة مجال لـ «الاعتقاد» فى وجود النيرڤانا أو «الإيمان» الأعمى بها. لم يكن لدى البودا الوقت للصياغات العقائدية المجردة المنفصلة عن الفعل. وحقا، فقد كان القبول بالتعاليم وفقا لمرجعية شخص آخر يسميه البودا أمرا «غير ماهر» أو «بدون جدوى» (akusala) لا يمكن أن يؤدى إلى الاستنارة لأنه كان يرقى إلى التخلى عن المسئولية الشخصية. كان الإيمان يعنى الثقة، فى وجود النيرڤانا والعزم على تحقيق ذاك الوجود بجميع الوسائل العملية التى يملكها.

كانت النيرڤانا نتيجة للعيش وفقاً لمبدأ بودا «اللاذات anatta» الذى لم يكن مجرد مبدأ ميتافيزيقى بل برنامجا للعمل. كان مبدأ «اللاذات» يتطلب من البوديين أن يتصرفوا، يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، وكأنما ليس ثمة وجود للذات. فالتفكر فى «الذات» لا يؤدى فقط إلى الانشغال غير ذى الجدوى «akusala» بـ «أنا» و«ملكى»، لكنه أيضاً يؤدى إلى الحسد وكراهية المنافسين، والخيلاء، والكبر، والقسوة و- حينما تشعر الذات بالتهديد - يؤدى

هذا إلى العنف. وفيما يصبح الراهب خبيرا فى تنمية حالة التجرد هذه، يتوقف عن إقحام ذاته فى الحالات العقلية العارضة، بل أيضا يتعلم النظر إلى مخاوفه ورغباته بصفتها ظواهر وقتية بعيدة. وهنا يكون قد أصبح معدا للاستنارة: «يتلاشى طمعه، وبمجرد أن تختفى شهواته، يخبر تحرر عقله وانطلاقه». تشير النصوص إلى أنه حينما سمع مريدو بودا الأوائل عن اللاذات anatta، امتلأت قلوبهم بالفرح وخبروا النيرڤانا على الفور. برهن العيش بعيدا عن متناول الكراهية والطمع والتوترات حول مكانتنا على أنه راحة عميقة لا تعادلها راحة.

أما أفضل وسيلة للوصول إلى حالة «اللاذات anatta» فكانت التراحم، القدرة على الشعور مع الآخر، التى تطلبت إبعاد الذات عن مركز عالم الفرد ووضع شخص آخر مكانها. وهكذا، أصبح التراحم التدريب المركزى فى المسعى الدينى. أحد أوائل من جعلوا أنه من الجلى عدم إمكان الفصل بين القداسة والإيثارية كان هو الحكيم الصينى كونفوشيوس (٥٥١- ٤٧٩ ق. م). فضل عدم التحدث عن الإله لأنه كان فى غير متناول كفاءة اللغة، كما أن الثرثرة اللاهوتية إلهاء عن الهدف الحقيقى للدين. اعتاد القول: «لطريقى خيط واحد يمر خلاله مباشرة». لم يكن ثمة متيافيزيقيا مبهمة، وكان كل شىء دائما يعود إلى أهمية التعامل مع الآخرين باحترام مطلق. أوجز هذا فى «القاعدة الذهبية» الذى قال إن على مريديه أن يمارسوها «طوال اليوم وكل يوم»: «لا تفعل أبدا بالآخرين ما لا تحب أن يفعلوه بك». عليهم أن ينظروا فى أعماق قلوبهم ليروا ما يتسبب فى إيلامهم ومن ثم يرفضون، تحت أية ظروف مهما كانت، إنزال ذلك الألم بالآخرين.

رأى أن الدين شأن للممارسة لا للتفكير. مكنت الطقوس التقليدية للصين الفرد من أن يصقل إنسانيته ويرتقى بها بحيث يصبح «شخصا ناضجا jun-

zi»، والچونزى لا يولد بل يُصنَع، عليه أن يعمل على نفسه مثل نحات يشكّل حجرا جامدا خشنا ويصنع منه شيئا جميلا. سأل يان هوى، أكثر مريدى كونفوشيوس موهبة «كيف لى أن أنجز هذا». أجاب كونفوشيوس، بأن الأمر بسيط «اكبح ذاتك واستسلم للطقوس». على الـ junzi أن يُخضع جميع تفاصيل حياته للطقوس القديمة التى تحض على مراعاة الآخرين واحترامهم. كان هذا هو الحل لمشاكل الصين السياسية «إذا استطاع الحاكم كبح ذاته والاستسلام للطقوس ليوم واحد، سيستجيب كل من تحت السماء لصلاحه وكرمه».

توصل ممارسة «القاعدة الذهبية» «طوال اليوم وكل يوم» البشر إلى حالة أسماها كونفوشيوش ren وهو لفظ وُصِف لاحقا بأنه النزوع إلى عمل الخير. لكن كونفوشيوس نفسه رفض إعطاء تعريف له لأنه لا يفهمه إلا من يكتسبه. فضل الصمت بشأن ما يكمن فى نهاية الرحلة الدينية. أما ممارسة الـ ren فكانت هدفا فى حد ذاتها، التسامى الذى يسعى الفرد إليه. عبّر يان هوى عن هذا بروعة حينما تحدث عن النضال الذى لا ينتهى للوصول إلى الـ ren «بتنهيدة عميقة»:

كلما أجهدت بصرى باتجاهه، يحلق أعلى.
كلما حفرت فيه أعمق أصبح أكثر صلابة، أراه أمامى،
لكن يصبح ورائى فجأة. خطوة بخطوة، يغرى
«السيد» الفرد على التقدم. لقد زاد من رحابتى
بالثقافة، وكبحنى بالطقوس. حتى لو أردت
التوقف لا أستطيع. وحالما أشعر أننى قد
استنفدت كل وسيلة، يبدو لى وأن شيئا
ينبعث، يقف فوقى حادا جليًا. لكن وعلى
الرغم من توقى للسعى إليه، لا أستطيع أن

أجد وسيلة للوصول إليه مطلقا.

حمل العيش المتراحم المتماهى مع الآخرين بان هوى خارج نطاق نفسه، ومنحه لمحات لحظية لحقيقة مقدسة تشبه «الإله» الذى يعبده الموحّدون. كانت حقيقة باطنية ومتسامية فى آن. تفجرت من الباطن، لكنها أيضا كانت حضورا «يقف فوقى حادا جليًا».

لم يكن الدين وفقا لتعريف عظماء حكماء الهند، الصين والشرق الأوسط، نشاطاً فكريا نظريا بل ممارسة عملية، لم يكن يتطلب الاعتقاد فى مجموعة من المبادئ، بل الأحرى العمل الشاق المنظم الذى بدونه كان أى تعليم دينى يظل مبهما وغير مصدق. لم تكن الحقيقة الجوهرية كائنا أعلى – وتلك فكرة كانت غريبة تماما على المشاعر الدينية فى القدم، كانت حقيقة كاملة التسامى والشمول خارج متناول الصيغ العقائدية المنمقة. من ثم، كان من غير الجائز للخطاب الدينى أن يحاول الإفصاح عن معلومات واضحة عن الإله والمقدس، بل كان لابد له أن يؤدى إلى تقدير لحدود اللغة والفهم البشرى. لم تكن الحقيقة المطلقة غريبة على البشر بل جزءا لا ينفصل عن حالتنا البشرية. لا يمكن الوصول إليها من خلال الفكر العقلانى المنطقى، لكن ذلك كان يتطلب حالة عقلية وجدانية تُنمّى بعناية والتخلى عن الذات.

لكن، إلى أى مدى يمكن أن ينطبق هذا على الديانات التوحيدية اليهودية، المسيحية والإسلام، التى تطرح نفسها ديانات للكلمة لا ديانات للصمت؟ فى القرن الثامن قبل الميلاد أوشك بنو إسرائيل على محاولة شىء غير معتاد فى العالم القديم. حاولوا جعل «يهوه» أو «السيد المقدس لإسرائيل» الرمز الأوحد للتسامى النهائى الجوهرى.